ثقافة الشعائر

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ . . . ﴾ الحج:٣٠

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ الحج:٣٢

■الشيخ حسين كوراني

بنيَّة الإسهام في تعظيم حرمات الله تعالى وشعائره في النفس والمجتمع، كان اختيار اسم «شعائر» لهذه المجلة الشهرية. ومع ذلك يظل السؤال المألوف حاضراً: لماذا هذه المجلة، وما الغاية من صدورها؟

في ما يلي استهلال بنبذة عن الشعائر والمجلة.

الشعائر

«الشعائر جمع شعيرة وهي (العلامة)، وإنّما سمّيت الشعائر ليشعر الناس بها فيعرفوها».

فالشعائر علامات للإشعار والإعلام. والهدف من العلامات، والإشعار بها، هو «الحق»، معرفة والتزاماً، علماً وعملاً. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الحج:٦.

وحيث إنّ الهدف عظيم، كان تعظيم العلامات الدالة عليه، المذكّرة به مطلوباً، فهو من «تقوى القلوب». «الشعائر» ضرورات الإنسان المكرّم لصياغة قلبه في السفر بالحق وإلى الحق، لإقامة العدل في القلب والحياة. وتتسع دائرة الشعائر ليندرج فيها «جميع العلامات الدالة على (الحق)»، المذكّرة به تعالى، كما نصّ على ذلك الفقهاء. منهم من عرّف «الشعائر» بقوله: «علامات طاعة الله وأعلام دينه». ثم تتسع مروحة «الشعائر» لتشمل كلّ حكم شرعي.

فليس الحلال والحرام، والواجب والمستحب، والمباح إلا «شعائر». إنّها على سعتها والشمول، بعض «الشعائر».

حب الشعائر من حب الله تعالى:

الشعائر– إذاً– وسيلة القرب من الله تعالى، ويتفرّع على حبّه سبحانه، حبّ كلّ ما يقرّب إليه. وعليه فإنّ حبّ «علامات طاعة الله تعالى وأعلام دينه» هو فرع حبه تعالى وتوحيده. وهو ما يلامس أمرين:

١ – أنّ «الشعائر» توقيفية. الشعائر هي ما جعله الله «شعائر» من خلال ورود النص عليه في القرآن الكريم أو الحديث الشريف الثابت. القانون توقيفي.

٢ – أن التعلق بـ «الشعائر» محض التوحيد، لأنه تعلقٌ بالله، وعناية بما يوصل إليه سبحانه.

الشعائر والأصالة:

من دلالات «شعائر الله» أنّ «الشعائر» التي تم تظهيرها ليشعر الناس بها، هي معالم الطريق إلى الله الحق، وبالتالي فالعلاقة جذرية بين تعظيم الشعائر وتعظيم الحرمات: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ...﴾ الحج:٣٠

وردت هذه الآية حول الحرمات قبل آية الشعائر بآية واحدة، وقد تّم التنبيه إلى مضمون كلّ من الآيتين بإشارة التنبيه الأتم: «ذلك». قال بعض كبار الفقهاء: ومن يعظم شعائر الله: «أي دينه».

ويفتي أصحاب الشأن بحرمة الإقامة في بلد لا يتمكن فيه المسلم من إقامة «شعائر الإسلام». حرية الفكر والمعتقد مقوّم للوطن. يعني ما تقدم أنّ عملية التثقيف في هدي الوحي، يفترض فيها أن تُعنى بهذه الشعائر، التي تشكّل بمجموعها القواعد والخطوط العامة الرئيسة لتحقيق «تقوى القلوب» التي هي الناظم الفرد لسلامة «المشاعر». بمقدار التزام عملية التثقيف في هدي الوحي «شعائر الله» تكون الأصالة.

والأصالة بما تعنيه من «الإستقامة على الطريقة» مطلوبة لأنّ «تقوى القلوب» تتوقف عليها. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك:١٤.

الإستقامة:

تعني – بداهةً – عدم الإعوجاج. وهو يتوقف على رعاية معالم الطريق أو «الطريقة»، والمعالم هي «شعائر الله». وقد تركت التحولات السياسية الإجتماعية عبر القرون آثاراً سلبية وحادة على تراتبية الشعائر وأولوياتها، وتظهير البعض وتحييد الآخر أو تغييبه، بل تشويهه أو طمسه وشطبه. الأمر الذي يقتضي أن يكون التوفّر على تظهير «الشعائر» كما هو موقعها، وتراتبيتها، في النص المعصوم، في متن العمل المعاصر لإحياء الدين في القلوب، وإحياء القلوب به.

هذا هو السبيل إلى الإستقامة على الطريقة: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ الجن:١٦.

نماذج:

من أبرز «شعائر الله»: الصلاة، والدعاء، والذكر. والصلاة «عمود الدين». كان النّبي إمام الجماعة في الصلوات الخمس. ولا يخلو عهد نبويّ من ذكر الصلاة. وكان النبي دائم الصلاة. ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ المعارج:٢٣. ثم كان كلّ حاكم عادل أو جائر إمام الجماعة، وبقي موقع الصلاة في متن حركة الحياة، رغم أنّ حكام الجور لم يكونوا دائمي الصلاة، ثم وصل الأمر إلى ما هو عليه الآن.

رغم كثرة المهتمين بالصلاة ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ المعارج:٣٤ أو (دائمون)، فإن الملاحظ – في مختلف البلاد الإسلامية– انتشار ظاهرة الإكتفاء بالتزام وجوب الصلوات الخمس، وتأدية ما تيسّر في أيّ وقت من وقتها، حتى وإن كان المتيسر هو الصلوات الأربع في بعض أوقاتها– وربما كان آخر الوقت– وقضاء صلاة الصبح أو نية قضائها، وربما مع الإقامة على التسويف.

أما «ناشئة الليل» و «النوافل» فالقرار بعدم مقاربتها «أقوم قيلا»! شأنها في ذلك شأن الأعمال «المؤقتة» التي تغطي عيون أوقات السنة بحكمة بالغة، تتوقف عليها سلامة البناء الثقافي في مهبّ أعاصير الغزو الثقافي وغيره. ولا شك في أن هذا الإنتشار عن حسن نية، كما لا شك في أنه لا يصح أن يُخرج أيّ منا نفسه من دائرته، أو احتمال التراجع إليها، إن كان قد غادرها أو سيفعل.

والدعاء «أفضل العبادة». ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ... ﴾ الفرقان:٧٧. تراجع الإهتمام به إلى حيث ينحصر الدعاء – غالباً– بطلب الحوائج الدنيوية، وغالباً بما يتاح إنشاؤه من مختصرالقول، في تحييد عن سابق عمد وإصرار لنصوص الدعاء، لدى مصاديق «الظاهرة» التي تقدم ذكرها.

باتت الأدعية المبسوطة، أو المواظبة حتى على الأدعية الموجزة– عند هؤلاء– أقرب إلى التّزمت، لا موقع لها في عملية «إحياء الدين».

والذكر: سواء ذكرُ الله تعالى «قوت الأرواح» أو ذكرُ العرض عليه يوم الحساب، الطريق الوحيد لسلامة إنسانية الإنسان و واقعيته وعقلانيته. لقد بات– الذكر– خارج الأولويات، وبات المواظبون عليه وهم كثر وفي خط بيانيّ متصاعد، «حالة» هي عند الأمثل «غير مفهومة».

تمّ الفصل لدى هذه الظاهرة بين «التثقيف» وبين «الذكر»، وربّما غاب عن البال كلياً أنّ التثقيف الحقيقي رهن دوام الذكر: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران:١٩١.

من النتائج السلبية:

قد يبدو أن الخطورة ليست إلا في ترك الواجب من الشعائر، وأنّ ما ينبغي التوفّر على العناية به هو التّهاون في بعض هذه الشعائر الواجبة.

والحق أنّ الخطورة أبعد من ذلك بكثير. إنّ التنازل عن سياج الدار تنازل عن بعضه. ليس التنازل عن المستحب وفعلُ المكروه صيانة للحب، بل هو إصحارٌ بعدم دفء الحب.

أوليس «حبّ الله تعالى» أسمى الفرائض وغاية الغايات.

إدمان ترك المستحب وفعل المكروه، يكشف حصانة فعل الواجب، وتركِ الحرام، وهو – الإدمان– مستند فتور الحب فالتلاشي والزوال.

أوليس البناء الثقافي في أي تنظيم، قائماً على رفض «ازدواجية الولاء». والولاء حب.

أوليس القرار بترك ما يحبّ الله تعالى، وفعل ما يكره، مؤشر «ازدواجية الولاء».

هل يمكن الفصل بين تغييب «الغيب» والمعاد بالخصوص، وبين هذا الخلل الثقافي المتمثل بقرار الإكتفاء بثقافة الحُكمين: الواجب والحرام، بل الإكتفاء بثقافة «ما اتفق منهما»، بدلاً من الأحكام الخمسة: الواجب والحرام والمستحب والمكروه والمباح؟..

بل كيف يمكن الفصل بين «أزمة الأخلاق» وقرار ترك التّخلق بالأسهل الأدنى ليُتاح الأسمى.

تكفي مقارنة سريعة بين من يُعنى بأعمال اليوم والليلة، والشهر والسنة، على قاعدة التدرّج الملزمة: «**إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق**» وبين ما نحن عليه في الغالب من الإعراض عن مناجم كنوز الأعمال والدعاء الفريدة.

هذه المجلة:

دون أدنى ادعاء للإلتزام العمليّ بما تقدم. إنما هي معاناة اقتضت التفكير المشترك بها، وهو اقتضى مساحة مبوبة بحسب الحاجة المقترحة والمتصورة لتلتقي الأفكار وتتآلف ألوان المعاناة، وتتعارف القلوب المتجانسة، للإنطلاق معاً في عملية تسديد وترشيد عبر دروب إقامة «شعائر الله» وتعظيمها وفق الثوابت، وتنقية «طريقة» إقامتها من عدوان الغزو الثقافيّ، بما يشمل الإعلام السياسي، والإعلان، الذي نشهد كيف تفرض سطوتُه على المسلم وغير المسلم أن يصوغ ثقافته ومصيره على وهج لهواتها المضطرمة.

على هذا الأساس، ستحاول هذه المجلة اعتماد تظهير الشعائر كما هي في «النص المعصوم» حيث حدد سياستها العامة بما يلي:

١ – العناية بالحكم الشرعي، والصلاة والدعاء، والفكر، والذكر، والمراقبات التي هي «الأعمال المنصوص عليها لأوقات محددة».

٢ – وحمل هم المسلمين والمستضعفين.

٣ – أن يكون ذلك كله في مسار ثقافي أخلاقي– عقلاني واقعي– بما تعني الواقعية من غيب وشهادة– لتحقيق الهدف في النفس من بعثة النبي ﷺ، وتجلي حسن الإقتداء والتأسي، لتحقيق الهدف الغائي : سلامة التوحيد : حق معرفة الحق.

لذلك حرص المعنيون بالمجلة على توفير ماتيسر من التدقيق في التزام تظهير هذه الأسس.

ولإنجاز ذلك نمد يد الإلتماس للجميع راجين مشاركتهم في جميع مجالات «شعائر الله». بما يشمل التسديد في الخارطة المعتمدة كمقترح لِيَرى ويُصوَّب.

لن تكتسي هذه المجلة حلتها النهائية، إلا في ضوء تسديدكم والمؤازرة.